مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الرابع - المجلد الواحد والخمسون

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

تطلعات روسيا القيصرية نحو فلسطين
في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

أ. د. نوري السامرائي
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

الملخص

بدأت تطلعات روسيا نحو فلسطين منذ نهاية القرن العاشر الميلادي بعد اعتناقهم العقيدة المسيحية فتوافد الحجاج الروس الى الأماكن المقدسة في فلسطين . وعند قيام الدولة الروسية الموحدة ظهرت توجهات روسيا السياسية نحو الممتلكات العثمانية لاسيما في عهد بطرس الكبير ١٦٨٢ ــ ١٧٢٥م مستغلين ادعاءاتهم بحق الأشراف على الكنائس المسيحية في فلسطين وحماية الارثدوكس من سكان الإمبراطورية العثمانية فقاموا ببناء المدارس الدينية والكنائس والأديرة والفنادق في فلسطين وشجعوا النشاط الثقافي مع الموانئ الفلسطينية وتم فتح القنصليات في المدن الفلسطينية المهمة على الرغم من تحديات السلطات العثمانية المدعومة من الدول الأوربية وبخاصة إنكلترا وفرنسا والتي أدت الى اندحار روسيا في حرب القرم وتوقيع اتفاقية باريس عام ١٨٥٦ .

ترجع علاقة روسيا[*] بالبلاد العربية الى ما قبل القرن التاسع الميلادي ومما يؤكد وجود علاقات تجارية بين روسيا والبلاد العربية في العصر العباسي ما أورده ((ابن خرداذبة)) (ت ٣٠٠ هـ) الذي قال : ان التجار الروس كانوا قد وصلوا الى بغداد وهم يحملون معهم سلعهم التجارية ومن جملتها جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف ، ويبدو انهم كانوا يحققون أرباحا جيدة ويبيعون سلعهم بأثمان مرتفعة ، وبذلك يحصلون على أرباح عالية ، علما انهم يدفعون جزية العشر اكثر من مرة لانهم يمرون بأراضي اكثر من دولة واحدة [١].

---

[*] ينتمي الروس الى العنصر السلافي وهو مجموعة من القبائل سكنوا اراضي أوربا الوسطى والشرقية منذ القرن الاول الميلادي في المناطق التي تمتد من جبال الكاربات غربا حتى نهر الفولغا شرقا ومن بحر البلطيق شمالا حتى مصب نهر الدينبر والدانوب في البحر الاسود جنوبا وقد اطلق الرومان على هذه المجموعة من القبائل مصطلح السلاف وهي كلمة لاتينية تعني الرقيق ذلك لان التجار الرومان كانوا يشترون اطفال هذه القبائل ، وحورت هذه الكلمة الى اللغة العربية الى مصطلح ((الصقالبة)) . ويرجع هؤلاء لغويا الى الشعوب الإيرانية ، ينظر فيدوسوف ــ تاريخ الاتحاد السوفيتي ، موسكو ، ص ٢٥ . اما كلمة (روس) فقيل انها نسبة الى احدى القبائل السرماتية المسماة بالقبيلة الساطعة والتي اطلق عليها اسم ((Rus)) باللغة السريانية في القرن السادس الميلادي . ينظر : عبد القادر احمد اليوسف ــ العصور الوسطى الاوربية ، بيروت ١٩٤٧ ، ص ٣٢١ ــ ٣٢٢ .

[١] ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله ((ت ٣٠٠ هـ) ، المسالك والممالك ، بريل (ليدن) ١٨٨٩ م ص ٦٥٤ .

ومما يؤيد وجود العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية ، العثور على النقود والمسكوكات العربية وبعض اللقط في روسيا والتي يعود تاريخها الى القرنين الثامن والتاسع الميلادي .

وفي عام ٩٨٨ م اعتنق الأمير فلاديمر سفياتوسلانتش (٩٨٠ ــ ١٠١٥ م) أمير إمارة كييف النصرانية على المذهب الارثدوكسي وفرضها على اتباعه . وهناك رواية طريفة حول سبب اعتناق هذا الأمير النصرانية ، فقيل انه تقابل مع أربعة وفود دينية ، تمثل الإسلام والكاثوليكية والارثدوكسية واليهودية وبعد مناقشة حادة مع أعضاء هذه الوفود قرر الأمير فلاديمر اعتناق المسيحية على المذهب الارثدوكسي ، وقيل انه رفض الإسلام لتحريمه الخمر وقال ((لا نستطيع العيش بدونها))[٢] وبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد العثمانيين أصبحت أبرشية موسكو المركز الحقيقي للكنيسة الارثدوكسية وصارت تسمى ((روما الثالثة)) وكان الأمير ايفان الثالث (١٤٦٢ ــ ١٥٠٥) حاكم إمارة موسكو قد تزوج أميرة بيزنطية هي الأميرة صوفيا ، فادعى بوراثته للأباطرة البيزنطيين[٣].

بدا أمراء موسكو يلقبون أنفسهم بالقياصرة اعتبارا من ١٥٤٧ . وكذلك اتخذوا من ((النسر ذوي الرأسين)) شعار بيزينطا ، شعارا للدولة الروسية . وفي عام ١٥٨٩م أقامت السلطة الحاكمة في موسكو بطريقة مستقلة في موسكو بحجة انها بطريقية اسطنبول أصبحت

---

[٢] د. عبد القادر احمد اليوسف ، المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

[٣] بيفانوف ، فيدوسوف ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

عاجزة عن إدارة أمور الكنيسة لوجودها في قلب العاصمة العثمانية[٤].

ان اعتناق الروس للديانة النصرانية قد أضاف سببا آخر الى السبب الاقتصادي لتقوية علاقاتهم بالأقطار العربية ولاسيما فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة في مدينة القدس وبيت لحم . فبدأت رحلات الحج الى فلسطين وكانت هذه الرحلات في بدايتها مقتصرة على رجال الدين فقط ، لكنها سرعان ما توسعت لتشمل عامة النصارى من ابناء روسيا فضلا عن اهتمام السياح والرحالة والباحثين ورجال الفكر من الروس لتعرف معالم هذه البقعة المقدسة واوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية فبدا الحجاج الروس يشدون الرحال الى فلسطين على شكل فرق لا يزيد عدد أفراد الفرقة الواحدة على العشرات ، فضلا عن الرحلات الانفرادية التي يقوم بها السياح والباحثون الذين لم تقتصر رحلاتهم على الديار المقدسة بل سرعان ما اتسعت لتشمل معظم أقاليم الشرق الأوسط . وقد انتظمت هذه الرحلات في نهاية القرن العاشر الميلادي وفي بداية القرن الحادي عشر منذ عهد الأمير فلاديمر ٩٨٠ حاكم إمارة كييف الذي اجبر شعبه على اعتناق المسيحية بعد ان وجد فيها وسيلة لتوحيد شعبه والقضاء على الديانات الوثنية المتعددة ، يضاف الى ذلك ان تعاليم المسيحية تتفق مع مصلحة الأمير الإقطاعي ، فقد أكدت المسيحية ان الأمير مسلط على الشعب من الله سبحانه وتعالى لذلك فما على أبناء الشعب الا طاعته[٥]. فظهر التحالف بين الأمير والكنيسة ، عندها بدا الأمير يشجع رحلات الحج الى فلسطين تلبية

---

[٤] د. سعيد عبد الفتاح عاشور / اوربا العصور الوسطى ، ج١ التاريخ السياسي / بيروت ١٩٦٤ ، ص ٦٦١ .

[٥] بيفانوف ، فيدوسوف ــ تاريخ الاتحاد السوفيتي ، موسكو ، بلا ، ص ٤١ .

لرغبة رجال الدين . كذلك تشجيع الرحالة والسياح للسفر الى فلسطين لهدف جمع المعلومات حول هذه البقعة المقدسة .

ومنذ ذلك التاريخ بدا المثقفون والشعراء الشعبيون من أبناء روسيا تدوين المعلومات حول فرق الحج الروسي الى فلسطين . وكانت أوائل تلك المدونات هي القصيدة الشعبية المنسوبة الى (فاسيلي يوسلاييف) من سكان مدينة ((نوفكورد)) عن كيفية وصوله ورفاقه الى تابوت المسيح ــ كنيسة القيامة ــ للانحناء والتقبيل والتبرك ثم الاستحمام في مياه نهر الأردن . اما القصيدة الشعبية الثانية المتعلقة بفلسطين التي عنوانها ((الأربعون من المتدينين البسطاء)) فتحوي معلومات قيمة حول رحلة هؤلاء الحجاج الى بيت المقدس وما عانوه من مصاعب وشدائد في طريقهم من روسيا الى فلسطين[٦].

غير ان أول مدونة وردت فيها معلومات جغرافية واجتماعية واقتصادية وتاريخية حول الأماكن المقدسة في فلسطين كانت في بداية القرن الثاني عشر وهي مدونة رئيس الدير الروسي في مدينة كييف الراهب دانييل الذي شد الرحال الى فلسطين في عام ١١٠٦ ــ ١١٠٨م .

وصادف وصوله الى بيت المقدس بعد احتلال الصليبيين لها بمدة قصيرة ولا شك في ان عددا كبيرا من الكنائس والأديرة قد تم تهديمها فيما بعد ، لذلك تعد المعلومات والإحصائيات التي دونها دانييل عن أبعاد هذه المدينة المقدسة ومساحتها وخططها مهمة جدا ، وبسبب

---

[٦] ب .م. دانتسيغ ــ الرحالة الروس في الشرق الأوسط ، عن الروسية د. معروف خزنة دار ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٣.

القيمة العلمية لهذه المعلومات فقد تمت ترجمها الى اللغـــات الفرنســية والألمانية واليونانية .

وكان اهتمام دانييل كبيرا في وصفه للمدينة المقدسة فيقول عنـها ((القدس مدينة عظيمة . أسوارها قويو ودائرية ، مبنية علـــى أربـــع زوايا في هيئة صليب ، وفيها حقول واسعة للأدغال وحولـــها جبـــال صخرية ، وهذا المكان بلا ماء ، أي لا يوجد فيه نهر ولا عين ماء ولا بئر غير انه يوجد مكان واحد يمكن التبرك بمائه وهو ((سيلو عام))(*) فالناس جميعهم والمواشي أيضا يعتمدون على مياه الأمطار فـــي تلـــك المدينة)) . تنبت الحبوب والغلال بوفرة حـــول مدينـــة القـــدس فـــي الأراضي الصخرية ... ويزرع القمح والشـــعير ، وهنـــاك شـــجيرات الخضار وافرة الإنتاج ، وبينها أشجار التوت والتين والزيتون ، كمـــا يصف الطريق الذي سلكه من المدينة المقدســـة حتـــى نـــهر الاردن ، ويصف البحر الميت بقوله : ((اما البحر الميت فانه ميت ولا يعيـــش فيه أي كائن حي بأي شكل من الأشكال ولا يوجد فيه سمك ولا حيـوان السرطان ويخرج من أعماق البحر القطـــران الأســـود)) . ويعطينـــا صورة عندما يتكلم على أبناء شعبه من الرهبان الروس الذين التقى بهم في القدس وبيت لحم بقوله : ((لقد ساعدني الرب أنـــا الضعيـــف .... هناك مرقد المسيح المقدس ويعيش فيه من أبناء الروس المتطوعـــون ،

(*) سيلوعام Silo am اسما لحوض ماء يأتي ماؤه من ينابيـــع تقـــع فـــي القســـم الجنوبي

الشرقي من مدينة القدس ، ما زالت اثاره باقية حتى الوقت الحاضر ، يعتبر من الأماكن المقدسة ، المترجم .

التقيت بهم وتكلم بعضنا مع البعض ، انا الضعيف)) ويذكر ان العرب والصليبيين كانوا يهتمون به ويرعونه بشكل خاص [٧].

وغالبا ما تتأثر رحلات الحج الروسية الى فلسطين بالعلاقات السياسية بين بيزنطا وروسيا وقيام الحروب بينهما على الرغم من وجود المعاهدات بينهما كمعاهدة عام ٩١١م [٨]. والاحتلال الصليبي للقسطنطينية والغزو المغولي للأراضي الروسية ١٢٤٠ ــ ١٤٨٢م . لذلك كانت رحلات الحج الروسية الى فلسطين متقطعة وغير منتظمة . وبعد سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين عام ١٤٥٣ ظلت رحلات الحج الروسية الى فلسطين تعاني من الصعوبات بتأثير الحروب الكثيرة بين العثمانيين والروس ، حتى أصبحت رحلة الحج الى فلسطين لا يمكن ان تتم إلا بعد حصول على فرمان من السلطان العثماني . وكان قياصرة الروس قد بداوا يبذلون اهتماما كبيرا في رحلات الحج والزيارة الى فلسطين للحصول على كثير من المعلومات حول فلسطين ويأتي في مقدمتهم في هذه المرحلة القيصر ((ايفان الرابع)) ١٥٣٣ ــ ١٥٨٤م الذي شجع الرحلات الى فلسطين ، كما قدم الأموال لبناء الأديرة والكنائس في مدينة القدس وبيت لحم وتوزيع الصدقات على الفقراء من أبناء هذه المدن باسم ابنه ، ففي عام ١٥٥٩ م وصل الراهب يوزنياكوف الى فلسطين بأمر من القيصر ايفان الرابع لتحقيق هذه الأغراض ، فأقام في فلسطين ثلاثة اشهر ، دون خلالها معلومات

---

[٧] حياة وسيرة الراهب دانييل رئيس الأرض الروسية ، ف . م فينونتسيوف ، بطرسبورغ ١٨٨٣ ، ص ٤ ت. د. معروف خزنة دار ، بغداد ١٨٩١ ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

[٨] فيدوسوف ، المصدر السابق ، ص ٣٨.

قيمة حول الزراعة في فلسطين والأحوال المعاشية لمدينة القدس وأساليب معيشتهم واهتم بالدرجة الأولى بطرق تزويد المدينة بمياه الشرب ، ويذكر ان موسم نزول الأمطار في القدس هو الخريف والشتاء وهو موسم الحرث والبذار حتى تاريخ مولد المسيح ، اما الربيع والصيف فلا وجود للمطر فيه ويصف أحياء مدينة القدس وشكل البيوت فيقول عنها إنها متلاصقة ببعضها مع البعض الآخر وسطوحها محنية الى الأسفل ويوجد بئر في فناء كل بيت تتجمع فيه مياه الأمطار وتتوافر فيه المياه طول أيام السنة (*) (٩).

ومن استقراء المعلومات التي دونها الرهبان والسياح الروس الذين زاروا فلسطين منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر ، تبين ان هؤلاء اهتموا في هذه المرحلة اهتماما كبيرا بوصف المدن ومواقعها ومرافقها العامة واسباب الراحة فيها وتوزيع المياه على منازلها والاطلاع على حياة السكان اليومية وطرق المواصلات التي سلكوها للوصول الى فلسطين . ولكن بعد هذه المرحلة برزت اهتمامات الرحالة الروس بالتجارة والنشاط الاقتصادي لكل الأقاليم والمدن التي يمرون بها في سفرهم الى الديار المقدسة ــ فلسطين ــ واهتمامهم بتلك المعلومات التي تتعلق بالزراعة والتجارة وحرف السكان والتركيبة

(*) وقع هذا الراهب في خطا ، اذ ان هذه الحفر ليست ابار بل احواض تتجمع فيها مياه الأمطار .

(٩) ((مسيرة التاجر فاسيلي يوزنياكوف الى الاماكن المقدسة في الشرق)) . مجموعة فلسطين الارثدوكسية ، إعداد م. لوباريف ، المجلد ٦ ، النشرة ٣ سانت بيترسبورغ ١٧٧٨ ، ص ٥٧ / معروف خزنة دار ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

السكانية في المدن الفلسطينية . ففي عام ١٦٣٤م قام الراهب كاكار برحلة من موسكو الى فلسطين استغرقت ثلاث سنوات وعلى الرغم من ادعائه ان الهدف من رحلته هذه هو الوصول الى القدس وبيت لحم لاداء الصلاة وطلب الرحمة والمغفرة والتكفير عن ذنوبه ، لكنه دون معلومات قيمة تتعلق بالوضع الاقتصادي من تجارة وزراعة وحرف السكان لكل الأقاليم والمدن التي مر بها في طريق رحلته الى فلسطين ، علما انه بدا رحلته من القوقاز ثم آسيا الصغرى وبلاد الشام وزار مصر والقاهرة وسيناء حتى مدينة القدس وكان في القدس ثلاثة أيام فقط والتقى بالرهبان الروس في مدينة القدس وبيت لحم . أما طريق عودته الى موسكو فكان عن طريق : السامرة ودمشق وأدنه وديار بكر وانقرة وسينوب حتى وصل غاليولي ثم ملدافيا وكييف وموسكو[١٠].

والجدير بالذكر هو انه لم يمر أي سائح روسي او حاج قبله بهذه المدن والأقاليم ، وكان قصده من هذه الرحلة بالدرجة الأولى هو جمع المعلومات عن الأوضاع الاقتصادية لهذه المدن والأقاليم .

وبتولي بطرس الأول ((الكبير)) مسؤولية الحكم في روسيا ١٦٨٢ ــ ١٧٢٥ برز هدف آخر ، مما زاد من نشاط العلاقات بين روسيا وبلدان الشرق الأوسط فضلا عن الأهداف السابقة ، ويتمثل هذا الهدف بشعار الوصول الى المياه الدافئة ، ويعني ذلك الوصول الى البحر الأسود ثم البحر المتوسط عبر المضايق وبذلك يتم التوسع على حساب الممتلكات العثمانية خاصة في الحدود الجنوبية للدولة الروسية

---

[١٠] دانتسيغ ــ الرحالة الروس في الشرق الأوسط ، ت معروف خزنة دار ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٥١ ــ ٥٦ .

والتوسع نحو الشمال حتى الوصول الى سواحل بحر البلطيق على حساب الأراضي السويدية ، فتأثرت الدراسات والمعلومات التي قام بها السياح الروس والرهبان عن أقطار الشرق الأوسط بهذه الأهداف السياسية التي عمل بموجبها بطرس الأول ((الكبير)) فزاد اهتمامهم بتعرف الأوضاع العامة للأقاليم العثمانية . ومنذ عهد بطرس الاول اصبح لدى روسيا سفارة دائمة في اسطنبول ، وكان اول سفير روسي لدى البلاط العثماني هو تولستوي وهو الجد الرابع للأديب الروسي تولستوي ، وقد وصل العاصمة العثمانية عام ١٧٠١ م وكان من مهمات هؤلاء السفراء هو التوسط لدى السلطات العثمانية للحصول على فرمان يسمح للحجاج والسياح الروس بزيارة الاماكن المسيحية المقدسة في فلسطين ، وغالبا ما كان يقوم السفراء الروس بزيارة القدس وبيت لحم ، كما فعل السفير تولستوي . وزار فلسطين في هذه المرحلة عدد كبير من السياح والعسكريين والحجاج والتجار الروس ، ففي عام ١٨٢٥ م وصل السائح الروسي بارسكي فلسطين ، وكان اهتمامه كبيرا بالحياة اليومية للسكان العرب في فلسطين فوصف ملابسهم ومأكولاتهم وعاداتهم وطريقة سكناهم ، فيقول عن العرب الذين يعيشون بين يافا والقدس : ((ليست لهم منازل خاصة بهم لا في المدن ولا في القرى وانما يعيشون في السهول ، يحطون الرحال في الخيام ، اما لباسهم فهو رداء واحد ويرتدي أولادهم ونساؤهم الصنادل في أرجلهم لان المرء لا يستطيع السير في الأراضي الصخرية وهو حاف ولا يلبس الرجال شيئا في أقدامهم ويحمل كل واحد منهم سكينا كبيرا يشده في وسطه ، وجميعهم يرتدون جلابيب زاهية متشابهة ومصنوعة من

قماش بسيط ، أما طعامهم فهو الخبز وزيت الزيتون ، أما الخمر فـــلا يشربونها أبدا .

ويكرر مسالة عدم شرب العرب للخمور اكثر من مرة ويظهر امتعاضه من العرب بشكل واضح على هذا العمل . ولاحظ وجود عدد قليل مـــن بساتين الكروم بين مدينة يافا والقدس ، ويرى ان السبب في ذلك يعـــود الى كسل العرب وعدم شربهم للخمر[١١].

كما زار فلسطين القس اندريه واخوه ســـتيفان عـــام ١٧٠٧ م والقس افرام عام ١٧١٢ م والقس لوكيـــانوف عـــام ١٧٠٣م والقـــس سلفستر عام ١٧٢٢م . ان توجه هذا العدد الكبير مـــن رجـــال الديـــن الروس الى فلسطين يدل على تزايد اهتمام الحكام الروس للقيام بـــهذه المهمة لمعرفة مزيد من المعلومات حول الأرض المقدسة .

وبعد جلوس الامبراطورة كـــاترين الثانيـــة ١٧٦٢ ــ ١٧٩٦م على العرش الروسي سارت على النهج الذي بداه بطرس الاول ، وهـــو الوصول الى المياه الدافئة ويعني التوسع نحو الجنوب علـــى حســـاب الممتلكات العثمانية ، لكن هذه السياسة أثارت حفيظة الدول الأوربيـــة ، خاصة فرنسا والنمسا اللتين قدمتا الإسناد للدولة العثمانيـــة وحرضتـــها على إعلان الحرب على روسيا ، فأعلنت الحرب على روســـيا عـــام ١٧٦٨م ، فحققت القوات الروسية انتصارات كبـــيرة علـــى الجيـــوش العثمانية ، لكن شغل روسيا في مشكلة تقسيم بولندا ، ونشوب الثـــورة الفلاحية التي عمت معظم الأقاليم الروسية ، اضطرت روسيا الى إنهاء القتال ، فوقعت معاهدة الصلح بين الدولتين في تموز ١٧٧٤م في قريـــة

---

[١١] دانتسغ ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

((كجك كنيارجة)) التي حققت روسيا بموجبها مكاسب إقليمية وفضلا عن ذلك أصبح لروسيا حق في التحدث باسم رعايا السلطان المسيحيين[١٢]. كما اصبح لروسيا حق إقامة كنيسة ارثدوكسية في اسطنبول على رأسها أساقفة روس ، واصبح من حق رعاياها الحج الى الأراضي المقدسة ، ونعني بها فلسطين دون الحصول على موافقة الإدارة العثمانية ، وحقها في إقامة القنصليات في المدن العثمانية ، حتى ارتفع عددها الى الثلاثين ما بين قنصلية ووكالة قنصلية في تركيا الآسيوية ، اشهرها قنصلية القدس وبيت لحم وحيفا ويافا وغزة فضلا عن سفارتها في اسطنبول[١٣]. حتى الحرب العالمية الأولى وبذلك اصبح من حق روسيا التدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية تحت حجة حماية النصارى الارثدوكس . ومنذ تلك المرحلة تحددت الطرق التي أضحى بإمكان روسيا بواسطتها الزحف على الممتلكات العثمانية في آسيا وأوربا الشرقية وهي : رابطة الشعوب السلافية وعلى رأسها روسيا ، على أساس انها اكبر القوميات السلافية لإثارة المتاعب للدولة العثمانية في البلقان وجنوبي شرقي أوربا والدفاع عن الارثدوكس الذي تدعي روسيا لنفسها حق حمايتهم خاصة في فلسطين[١٤].

فلما وضعت شروط معاهدة ياسي عام ١٧٩٢ حرصت الإمبراطورية كاترين الثانية على وضع شرط يتعلق بتأييد الحق

---

[١٢] د. هاشم التكريتي ــ المسالة الشرقية ــ المرحلة الاولى ، بغداد ١٩٩٠ ص ٣٨.

(13) B.M Danseg – Near East, Moscow 1976 , 254.

[١٤] د. محمد انيس ــ الدولة العثمانية والمشرق العربي ، القاهرة ، بلا ص ١٦٩ .

المذكور ، وكانت الإمبراطورة كاترين لا تقل عن بطرس الأول في انتهاز كل فرصة لتعلن عن موقفها المدافع عن نصارى الإمبراطورية العثمانية لاعتقادها ان هذا سيؤدي الى الخلافات مع العثمانيين فتشتمل الأعذار لإعلان الحرب على الإمبراطورية العثمانية[١٥].

وقد انعكست طموحات كاترين وموقفها من الدولة العثمانية على سياسة روسيا في اهتمامها الكبير بالأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين فشجعت رحلات الحج الى فلسطين لهدف من أهدافها التوسعية على حساب الممتلكات العثمانية فضلا عن تشجيع السياح لزيارة أقطار الشرق الأوسط ولاسيما فلسطين للحصول على مزيد من المعلومات حول هذه الأقاليم . ففي عام ١٧٩٣ وصل الراهب المسكوفي ميليتي مدينة يافا ، وكانت أول ملاحظاته من خلال وجوده في هذا الميناء الفلسطيني هو ان الترك يتصرفون مع الروس بروح مليئة بالكراهية . ودون ملاحظاته حول وصف هذه المدينة ، فوصف شوارعها ومساكنها والبساتين التي تحيط بها والانتماءات القومية والدينية فيها ، فقال ان معظم السكان من العرب المسلمين واليهود قلة ، كذلك عدد النصارى من الارثدوكس والكاثوليك ، وعدد قليل من الحكام والأتراك العسكريين وقال ان مرفا المدينة غير صالح للملاحة ، كما شاهد موسم الحج في القدس وبيت لحم فقدر عددهم بـ ٥٠٠٠ حاج من كل الطوائف المسيحية ، ويدعى ان غالبيتهم من الارثدوكس . وفي عام ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥م قام الراهب المسكوفي فيشيناكوف برحلة الى القدس عن طريق اسطنبول ويافا فتلمس من كل مدينة من مدن فلسطين كره العرب

---

[١٥] حسين لبيب ـ المسالة الشرقية ـ القاهرة ١٩٢١ ، ص ٦٠ .

للحكام الأتراك ، وان معظم سكان القدس من العرب المسلمين مع قلة من الأتراك وعدد كبير من النصارى الارثدوكس والكاثوليك ، اما اليهود فعددهم قليل يسكنون في أحياء خاصة بهم ، منازلهم جيدة ، يسكن معظمهم بجوار هيكل سليمان في الأقسام الشرقية من القدس . وهم في معزل عن السكان الآخزين ولهم أسواقهم الخاصة لبيع المأكولات ويمارسون التجارة والحرف المتنوعة[١٦]. وفي عام ١٨٣٠م قام الكاتب اللاهوتي ومؤرخ الكنيسة الارثدوكسية والموظف في الشعبة الدبلوماسية التابعة لأركان الجيش الثاني مورافيوف برحلة الى فلسطين عبر صحراء سيناء وفي طريقه للقدس وصف مدينة غزة وقال عنها نشطة في المجال الاقتصادي وهي أغنى مدن فلسطين ، والمعروف ان سعف شجرة النخيل الذي جلبه معه مورافيوف الى روسيا قد أوحى للشاعر ليرمنتوف من الخيال والقدرة فنظم في عام ١٨٣٧م قصيدة عنوانها ((غصن فلسطين))[١٧]. وصف فيها طبيعة فلسطين الخلابة ، جبالها وسهولها ومياهها وهواءها واشجارها وكان مطلعها :

قل لي يا غصن فلسطين
أين نموت وأين أزهرت
أي تلال وأي وديان
كنت لها زينة
عند مياه الأردن النقية
كانت أشعة الشمس تداعبك

---

[١٦] دانتسنغ دار ، المصدر السابق ، ص ١٥١ .

[١٧] مختارات من شعر ليرمنتوف / موسكو ١٩٥٨ ، ص ٥٩ (باللغة الروسية) .

في الليل كانت الريح من جبال
لبنان تحركك بغضب .

وفي عام ١٨٣٥م وصل الرحالة نوروف فلسطين عن طريق صحراء سيناء وزار مدينة يافا وأبدى إعجابه بالأحواض المنتشرة في أحيائها والمزينة بآيات من القران الكريم ترحب بالمسافر المتعب عند دخوله المدينة ، معظم سكانها من العرب يتجاوز عددهم ٤٠٠٠ نسمة اما النصارى فلا يزيد عددهم على ٦٠٠ نسمة ، وبعد زيارته لبيت المقدس وبيت لحم توجه الى البحر الميت وسجل انطباعاته عن هذا البحر الذي قال فيها لا وجود للحياة فيه من حيوان او نبات .

وفي عام ١٨٤٥م قام الطبيب زافالوج برحلة الى فلسطين عن طريق السويس وصف ببراعة مدن : غزة والرملة ويافا والقدس ، ومما جلب انتباهه كثرة الفقراء في مدينة القدس وغالبا ما يتزاحمون حول كنيسة القيامة ، والقسم الأكبر من النصارى يعيشون على هبات الأديرة ، اما اليهود فيعيشون على المبالغ التي يتبرع بها إخوانهم في الدين في مختلف أرجاء العالم ، اما المسلمون فليسوا اكثر ثراءً [١٨].

وفي ٢٩ اب ١٨٠٤م ابحر السائح فشيكوف من مياه اوديسا فوصل الى اسطنبول ، بعدها أبحر الى يافا ثم وصل الى القدس عن طريق اللد والرملة . واجلب انتباهه عند مروره بهذه المدن كره العرب للأتراك . وقابل في مدينة القدس الرهبان الارثدوكس من الروس الذين يعيشون في المدينة بصورة دائمية ، فضلا عن ذلك التقى أربعة من المواطنين الروس اثنين منهم من تجار مدينة قازان واثنين من التتار الذين رجعوا بعد تأدية فريضة الحج في مكة المكرمة وهم في طريقهم الى ديارهم

---

[18] B.M Danseg, OP. Cit, 168 .

في روسيا[١٩]. ومالوف لدى الحجاج المسلمين زيارة المسجد الاقصى وقبة الصخرة بعد أدائهم فريضة الحج في مكة المكرمة .

وبعد ان اعتلى العرش العثماني عبد المجيد ١٨٣٩م بدا العمل بإصلاح شؤون الدولة العثمانية يعاونه وزيره الأول رشيد باشا ، فخشيت روسيا ان تنتعش الدولة العثمانية وتصبح قادرة على رد المعتدين عليها من الدول الأوربية وبالدرجة الأولى روسيا ، لذلك عمدت الى التلاعب بوسائل مختلفة لتنفيذ أهدافها التوسعية على حساب الممتلكات العثمانية ، فأثارت مجددا مسالة حماية المسيحيين وحقها في الأشراف على الكنائس والأماكن المقدسة في فلسطين[٢٠] .

وكان الباب العالي قد سلم مفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس وبيت لحم للرهبان الكاثوليك ترضية لفرنسا ، فأعلنت روسيا معارضتها لذلك على زعم ان لها وحدها حق الحماية المسيحية في الأقاليم العثمانية بحكم المعاهدات المعقودة بين الدولتين ــ الروسية والعثمانية ــ كما جاء في معاهدة ((كجك كينارجه)) لعام ١٧٧٤م ومعاهدة ياسي لعام ١٧٩١م ، لكن فرنسا عارضت المطالب الروسية ، فاشتدت الخلافات عام ١٨٥٠م بين نيقولا الأول قيصر روسيا ونابليون الثالث إمبراطور فرنسا حول إدارة الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم فكان في القدس رهبان من جنسيات مختلفة تابعون لطوائف وكنائس مسيحية مختلفة ما بين كاثوليكية وارثدوكسية وأرمنية ، وكان الرهبان من الكاثوليك والرهبان الارثدوكس لا يتوقفون عن النزاع

---

[٢٠] محمد قاسم وحسين حسني / تاريخ القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤

[19] B.M Danseg, OP. Cit, 167.

والخلاف على إدارة الأماكن المقدسة ولاسيما حول الأشراف على كنيسة المهد وكنيسة القيامة . وكانت فرنسا تحمي الرهبان الكاثوليك وروسيا تحمي الرهبان الارثدوكس . ((وحارت تركيا بين الفريقين ولم تعرف كيف توفق بينهما))[٢١].

وقد هاجم القيصر نيقولا الأول بصفته المدافع عن الارثدوكسية سلكان تركيا لانه لم يفلح في المحافظة على السلام في الأرض المقدسة ــ فلسطين ــ وطالب بالاعتراف بحق روسيا في حماية النصارى داخل الإمبراطورية العثمانية استنادا الى بنود معاهدة ((كجك كينارجه)) عام ١٧٧٤م ومعاهدة ((ياسي)) عام ١٧٩١م ، لكن الإمبراطور نابليون الثالث سرعان ما أشار الى ان حقا مزعوما كهذا يتناقض مع حقوق فرنسا القديمة التي حصلت عليها بموجب المعاهدات السابقة في حماية الكاثوليك مثل معاهدة ١٧٤٠م وطالب السلطان العثماني بوجوب مقاومة الادعاءات الروسية ، فاستجاب السلطان العثماني لطلب الإمبراطور الفرنسي[٢٢].

وكان هذا النزاع الذي بدا بخلافات بين الرهبان الكاثوليك والرهبان الارثدوكس حول حماية الأماكن المقدسة في فلسطين سوعان ما تحول الى قضية دولية عندما سارعت فرنسا بإسناد رجال الدين الكاثوليك وروسيا بإسناد رجال الدين الارثوكس[٢٣]. فقد طالب الإمبراطور نابليون الثالث عام ١٨٥١م السلطان العثماني ان يعلن وثيقة

---

[٢١] حسين لبيب / المصدر السابق ، ص ٧٤ .

[٢٢] كارلتون هيز / التاريخ الاوربي الحديث ١٧٨٩ ــ ١٩١٤ ، ت المرحوم الدكتور فاضل حسين ، الموصل ١٩٨٧ ، ص ١٦٧ .

[٢٣] د. هاشم التكريتي / المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

رسمية يؤكد فيها الوضع الأفضل لرجال الدين الكاثوليك ولجميع الكاثوليك الذين يتمتعون بالحماية الفرنسية حسب الامتيازات التي وردت في معاهدة ١٧٤٠م والتي لم يعد رجال الدين الكاثوليك في فلسطين قادرين على التمتع بها بسبب الإسناد الروسي للرهبان الارثدوكس في فلسطين وشغل فرنسا بمشكلاتها الداخلية وحروبها الخارجية في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر [٢٤]. وقد أيدت الدول الكاثوليكية مثل النمسا وأسبانيا وبلجيكا والبرتغال مطالب الإمبراطور نابليون الثالث هذه ، فاضطر السلطان العثماني الى الاستجابة لمطالب فرنسا ، لكن هذه الخطوة التي اقدم عليها السلطان سببت امتعاضا شديدا لدى القيصر الروسي نيقولا الأول ، حتى طلب من العثمانيين العدول عن ذلك القرار . والواقع ان قضية الأماكن المقدسة في فلسطين لم تهم نابليون الثالث ونيقولا الأول بل كانت بالنسبة لهم ستارا لقضايا اعمق واكثر أهمية ، ففرنسا استهدفت استغلال ذلك لتحطيم الحلف الفارسي الذي حجم نفوذها في العلاقات الدولية لمدة نصف قرن فأراد الإمبراطور الفرنسي استغلال هذه المسألة لإبعاد بريطانيا والنمسا عن روسيا في هذه المنطقة التي تتصادم فيها مصالح هاتين الدولتين مع مصالح روسيا . أما نيقولا الأول فأراد استغلال النزاع حول الأماكن المقدسة في فلسطين لتوسيع النفوذ الروسي في الأقاليم العثمانية ، ولهذا كانت روسيا مستمرة على توسيع نفوذها ورفع مكانتها بين الارثدوكس ولاسيما في فلسطين بمختلف الوسائل ، فقامت في هذا الوقت بتوزيع النقود على رجال الدين الارثدوكس وتعمير

---

[٢٤] نفس المصدر .

الكنائس والأديرة القديمة وبناء جديدة في فلسطين وأسست عدة معاهد دينية وغير ذلك من الإجراءات التي تعزز نفوذها في فلسطين بين الارثدوكس[٢٥] كتشجيع رحلات الحج والسياح والمثقفين الى فلسطين . وهذا في الواقع مما دفع نيقولا الأول الى ألا يكتفي بالمطالبة بحماية حقوق الكنيسة الارثدوكسية في القدس وبيت لحم فقط بل تعدى ذلك الى المطالبة بأن تعترف السلطة العثمانية به حاميا لجميع رعاياها الارثدوكس ، أي حق النزول له عن رعاية الجزء الأكبر من سكان الإمبراطورية العثمانية ، ولو استجابت السلطة العثمانية لمطالب نيقولا الأول لحاز الزعامة والحماية لـ ١٢ مليون من الارثدوكس في الإمبراطورية العثمانية[٢٦] ، لكن الباب العالي رفض هذا الطلب لكونه لا يتفق وسلامة الامبراطورية العثمانية بحسب ادعائه. عندها قرر القيصر نيقولا الأول إرسال عضو مجلس الدولة منشيكوف الى اسطنبول لتقديم إنذار إلى العثمانيين في حالة عدم قبولهم لمطالب القيصر الاخيرة . فوصل منشيكوف اسطنبول في ٩ آذار علم ١٨٥٣م . وكان القيصر قد فوضه حسم النزاع مع العثمانيين حول الأماكن المقدسة في فلسطين بتوقيع معاهدة مع العثمانيين تتضمن الاعتراف بحق الإمبراطور الروسي بحماية جميع رعايا السلطان الارثدوكس ، لكن الادارة العثمانية رفضت الطلبات التي تقدم بها منشيكوف بتشجيع من السفير البريطاني في اسطنبول ستراتفورد . فأضطر منشيكوف الى تقديم مسودة مشروع جديد في ٥ أيار ١٨٥٣ م الى الإدارة العثمانية

---

[٢٥] الدكتور هاشم التكريتي / المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

[٢٦] حسين لبيب ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

حذف منه مطلب حماية الكنيسة الارثدوكسية وكذلك البنـــود الخاصـــة بانتخابات البطارقة الارثدوكس ولكنها تضمنت حق روسيا في إنشـــاء كنيسة جديدة مع ملحقاتها في القدس وتأكيد جميع المعـــاهدات الســـابقة المعقودة بين روسيا والعثمانيين ، كما أكد المشروع وهو منح روســـيا بشكل محدد الحق بحماية الارثدوكس في الإمبراطورية العثمانية بنفـس الشكل الذي كان من حق فرنسا ، كما ورد في معاهدة ١٧٤٠م[٢٧] .

وجاء الرد العثماني على مشروع منشيكوف الاخير بأن وعـــد الباب العالي باحترام حقوق رعاياه الارثدوكـــس وحصانـــة الكنيســـة الارثدوكسية ولكن رفض التوقيع على الاتفاق الذي طلبه منشيكوف لان ذلك يعرض استقلال الدولة العثمانية الى الخطر ، كما اخبر منشـيكوف بان الإدارة العثمانية عازمة على الحفاظ على الوضـــع الراهـــن فـــي الأماكن المقدسة في فلسطين ، وان أي تغير تقوم به السلطة العثمانيـــة هناك لا يمكن ان يتم الا بعد الاتفاق عليه مع فرنسا وروســـيا اللتيـــن اعترف بهما تبعا لذلك ضامنتين للكنيسة المسيحية في الإمبراطوريـــة العثمانية لا ترجح أحدهما على الأخرى في هذا المجال[٢٨] . وفـــي ٢٠ أيار ١٨٥٣ م قدم منشيكوف مشروعا جديدا الى الإدارة العثمانية جـــاء فيه أن تعلن السلطة العثمانية بيانا رسميا تلتزم بموجبه تـــأكيد جميـــع حقوق وامتيازات الارثدوكس السابقة وبمنحهم جميـــع الحقـــوق التـــي سيحصل عليها أصحاب المعتقدات المسيحية الأخرى فـــي المســـتقبل . لكنه لم يتسلم الجواب على اقتراحاته الجديدة ، فغادر اسطنبول فـــي ٢١

---

[٢٧] حسين لبيب ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

[٢٨] دكتور هاشم التكريتي / ص ١٧٨ / المصدر السابق

أيار ١٨٥٣ م وتبعه القائم بالأعمال الروسي في اسطنبول . عندها وجه القيصر نيقولا الأول إنذارا جديدا الى الحكومة العثمانية هـدد بدخـول القوات الروسية إمارتي الدانوب اذا لم تستجب الى اقتراحات منشيكوف الاخيرة، ولايعني هذا إعلان الحرب بل ليكون ذلك ضمانا ماديا لتنفيـذ الباب العالي للمطالب التي قدمتها روسيا ، لكن السلطان العثماني رفض الإنذار الروسي نتيجة للإسناد البريطاني والفرنسي عندها احتلت القوات الروسية إمارتي الدانوب في تموز ١٨٥٣ م .

ولما كان احتلال روسيا لإمارتي الدانوب يهدد مصالح إنكلـترا وفرنسا والنمسا فقد عقد في فينا مؤتمر غير رسـمي يضـم سـفراء بريطانيا وفرنسا وبروسيا بمبادرة من وزير خارجية النمسا وذلك لحسم النزاع بين روسيا والدولة العثمانية بالطرق السلمية[٢٩]، وصـدر عـن المؤتمر مذكرة ترك فيها أمر حماية المسيحين غامضا بحيث تسـتطيع كل من بريطانيا والدولة العثمانية تفسيره طبقا" لمصلحتها ، لكن الدولـة العثمانية ((أصرت على ان لا توضع حقوقها موضع الشـك))[٣٠] . وقد عززت بريطانيا وفرنسا هذا الرأي ، فـأعلنت روسـيا تمسـكها بمطلبها الأول ، فوجه السلطان العثماني إنذارا الى روسيا بسحب قواتها من إمارتي الدانوب بتشجيع من بريطانيا وفرنسا ولما لم تستجب روسيا للإنذار العثماني أعلن العثمانيون الحرب على روسيا في ١٦ تشـرين أول عام ١٨٥٣م وردت روسيا على ذلـك بـإعلان الحـرب علـى العثمانيين في اليوم الأول من تشرين ثاني عام ١٨٥٣ م . وفي بدايـة

---

[٢٩] د . هاشم التكريتي / المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

[٣٠] محمد قاسم وحسين حسني / المصدر السابق ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

الحرب منيت القوات العثمانية بهزيمة منكرة في معركة سينوب في ٣٠ تشرين ثاني عام ١٨٥٣ م . اذ تم تدمير الأسطول العثماني وكان نتيجة المعركة هذه السبب المباشر لدخول كل من بريطانيا وفرنسا وسردينيا الحرب بجانب العثمانيين ضد روسيا . اما النمسا فكان موقفها حياديا مضطربا ، وقد حاولت التدخل بين الأطراف المتحاربة لحسم النزاع ، وحينئذ توفي الإمبراطور نيقولا الأول وحل مكانه ابنه الاسكندر الثاني عام ١٨٥٥ م فزاد الأمل لدى بريطانيا وفرنسا لوقف القتال بما عرف عن الإمبراطور الروسي الجديد في ميله للسلام ، وصادف مجيئه الى مسؤولية الحكم الاندحارات الكبيرة التي ألحقت بالقوات الروسية ، فأضطر الى قبول الإنذار النمساوي المقدم الى روسيا في ٢٨ كانون أول عام ١٨٥٥ م الذي جاء من جملة بنوده وجوب تخلي روسيا عن حقها بحماية رعايا السلطان من المسيحيين الارثدوكس . وفي ١٨ شباط عام ١٨٥٦م أصدر السلطان العثماني مرسوم الإصلاح المسمى ((خطي همايون)) الذي أكد حرية العقيدة والمساواة المدنية لجميع رعايا الإمبراطورية العثمانية وقد اراد السلطان العثماني من ذلك ان يسلب الدول الحجة التي كانت تتذرع بها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، فأنعقد مؤتمر الصلح في باريس في ٢٥ شباط ١٨٥٦ م وانهى أعماله في ٣٠ آذار ١٨٥٦ م بالتوقيع على معاهدة باريس التي كان من بعض بنودها تخلي روسيا عن أي مطلب في حماية المسيحيين من رعايا الإمبراطورية العثمانية ، ووافقت على احترام كيان الإمبراطورية العثمانية [٣١] .

---

[٣١] كارلتون هيز / المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

وعلى الرغم من الهزيمة العسكرية التي حلت بروسيا والشروط القاسية التي فرضها مؤتمر باريس عليها ، فظلت الأهداف الروسية قائمة تجاه الإمبراطورية العثمانية على الرغم من مشكلاتها الداخلية التي ساعدت الحرب على نضجها ، لذلك لم ينجح مؤتمر باريس في القضاء على حالة العداء في العلاقات العثمانية – الروسية. فقد استمر السياح والرهبان الروس في رحلاتهم الى فلسطين ، ومما يجلب الأنظار اهتمام هؤلاء السياح والرهبان في هذه الحقبة بالدعاية لروسيا في وسط المجتمع العربي وحب العرب لهم والتودد للعرب والإشادة بسمعة في روسيا في وسط المجتمع العربي وتفضيلهم على غيرهم من بقية الأوربيين ، وكان هدفهم من ذلك رفع سمعة روسيا في وسط المجتمع العربي بعد انهيار سمعتها بتأثير حرب القرم . ففي عام ١٨٦٠ م قام السائح الروسي ((بيرك)) برحلة الى فلسطين ، وكان انطباعه الأول عن عرب فلسطين يتمثل بقوله : ان هذا الشعب – شعب فلسطين – يحب الروس ويميل إليهم بالقياس الى جميع الأوربيين الآخرين ، وهل تعرف لماذا ؟ الجواب لان الروس يتعاملون معهم ببساطة وإنسانية ، أما الفرنسيون والإنكليز وعلى وجه الخصوص الإنكليز فيعاملونهم كما يعاملون الحيوانات ، فالإنكليزي لا يمكن ان يتكلم معهم لأي سبب من الأسباب ، ويقذف لهم الجنيه ، كما يرمي الأكل الى الكلاب ، وهذا الشعب – الشعب العربي الفلسطيني – حساس اكثر من غيره ، يرنو الى لطف وبشاشة الجوالين الذين يأتون الى صحرائه أعطه اقل ولكن أعطه بإنسانية وهو يتذكر هذه الإنسانية مدة طويلة وينقل أسمك من جيل الى جيل [٣٢]. أما الطبيب الروسي

---

(32) B.M. Danseg, OP. Cit, P. 235 – 254.

بيليسيف الذي قام برحلة الى فلسطين عام ١٨٨١ م بتكليف من الجمعية الفلسطينية – الروسية فقد تجول في معظم المدن الفلسطينية بهيئة حاج بسيط ، دون معلومات حول الحياة الاجتماعية في المدن الفلسطينية ونشاط السكان الاقتصادي وتخطيط المدن ولاحظ في جميع مدن الشرق الأوسط التي زارها ابتداءً من اسطنبول ثم فلسطين وانتهاءً بالصحراء في شبه الجزيرة العربية فقد لاحظ التطور نحو الا فضل في علاقة العرب بالروس فالاسم الروسي اصبح في الشرق الأوسط يعني الإخلاص ، فهو لا يقارن بالألمان والفرنسيين وخاصة الإنكليز ، ويدعي انه كان يقابل بالود والاحترام حين يحل في أي مدينة عربية ، ولا يشعر بوجود عداء للروس وحتى في أيام قصف الإسكندرية من جانب الأسطول البريطاني عام ١٨٨٢ م عندما كان العرب يقتلون أي أجنبي، فكانت كلمة واحدة ((أنني مسقوفي)) تنقذ الروسي من ذلك الخطر المحدق [٣٣] .

وفي المدة ١٩٠٨ – ١٩١٠ أقام العالم الروسي كراجكوفسكي في سوريا ومصر كمبعوث لجامعة بطرسبورغ وخصص جزاء من هذا الوقت لزيارة المدن الفلسطينية فزار القدس وبيت لحم ، ففي القدس عمل في المكتبة التي تحمل اسم ((المكتبة الخالدة)) كما زار الناصرة وأريحه وتعرف على مشاهير العلم والأدب في المدن الفلسطينية اذ يقول : ((التقيت أناسا لهم أهميتهم الخاصة حين تجولت في جبال فلسطين وسهول الجليل ، فكان معلمو القرى والصحفيون المحليون

---

[٣٣] ف . بسيليسيف – الطريق الى سيناء في عام ١٨٨١ . سانت بطرسبورغ ١٨٨٣ م ص ٢ – ٣ / ت معروف خزنة دار ص ٣٢٧ .

ومراسلو الجرائد والأطباء يستقبلونني بود وصداقة انهم جميعا يثورون ويحملون بالانبعاث القومي ، وكان الأدب القومي يستقطب جميع ميولهم، وكانوا ينظرون بحب واجلال الى أثاره القديمة التي كانت ومازالت مستمرة في منح الحياة لهم .

وكان بإمكان المرء وهو يعرف اللغة الروسية فقط ان يقوم بالرحلة والسفر في جميع أنحاء فلسطين في بداية القرين العشرين)) واقتنع بان هيبة روسيا أصبحت عالية جدا[٣٤].

وكان هذا العالم يهتم بالعلم والأدب بحيوية ونشاط ، وكان يبحث في الصحف والمجلات والمطبوعات دارسا علاقة روسيا بالبلاد العربية .

وكان لهؤلاء الرحالة ورجال الفكر والرهبان دور كبير في تقوية العلاقات الثقافية بين روسيا وفلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كذلك كان ((للجمعية الفلسطينية – الروسية)) دور كبير في تطوير العلاقات الثقافية بين روسيا وفلسطين التي أسست في ثمانينات القرن التاسع عشر التي أسهمت إسهاما فاعلا في نشر الثقافة العربية في روسيا وبالعكس . وكانت هذه الجمعية القائمة حتى اليوم قد أسست في فلسطين ولبنان وسوريا في أواخر القرن التاسع عشر عدة مدارس لابناء العرب وقام خريجو هذه المدارس بترجمة مؤلفات الأدباء الروس الى اللغة العربية [٣٥] .

---

[٣٤] ب . م . دانتسيغ ، ت / معروف خزنة دار – االرحالة الروس في الشرق الاوسط ، بغداد ١٨٩١ ، ص ٣٥٣ .

[٣٥] بوندار يفسكي – سياستان ازاء العالم العربي ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٢٦٦ .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تعززت العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية خاصة مع بلاد الشام وفلسطين بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م إضافة الى ذلك فقد عمدت السلطات القيصرية الى تحقيق أهدافها السياسية على حساب الممتلكات العثمانية في أسيا وأوربا عن طريق تقوية العلاقات التجارية بأقاليم الإمبراطورية العثمانية ، فأخذت بتقديم الدعم المادي لتلك الشركات والمؤسسات الاقتصادية التي تقيم لها علاقات تجارية مع الأسواق العثمانية . وتكشف وثائق مركز حفظ الوثائق في مدينة بطرسبورغ عن حجم العلاقات التجارية بين روسيا والموانئ العثمانية خاصة ميناء حيفا وبيروت . وهناك تقارير كثيرة رفعها وكلاء الشركات الروسية في حيفا وبيروت الى وزارة التجارة الروسية عام ١٩١٢ م طالبوا فيها بإيجاد معرض دائم للسلع الروسية في فلسطين ويرشحون مدينة القدس لذلك المعرض ، وفي عام ١٩١٠ احتلت الموانئ بلاد الشام وفلسطين سدس مجموع حجم التجارة الخارجية للأقاليم العثمانية ، وقد احتلت الصادرات الروسية المرتبة الخامسة في تسلسل تلك الدول التي لها علاقة تجارية بموانئ بلاد الشام وفلسطين وهي : بريطانيا والنمسا وفرنسا ومصر وروسيا ، وكانت أشهر الصادرات الروسية هو نفط باكو حتى احتل المرتبة الأولى في الأسواق العثمانية من ١٩١٠ الى ١٩١١ ويأتي بعد النفط السكر النـاعم فكانت الأسواق العثمانية تستهلك ٩مليون[*] بود من السكر في السنة ، وبالنسبة الى حصة فلسطين من هذا السكر فان ميناء حيفا استقبل نصف السكر المستورد

---

[*] البود : وحدة وزن روسية تعادل ١٦,٣٨ كغم .

من روسيا ويأتي بعد السكر المشروبات الروحية ، فقد استوردت بلاد الشام خاصة ميناء حيفا وبيروت عام ١٩١٠ م ٨٠٠ر٤٨ بود من المشروبات الروحية كان نصيب روسيا من ذلك ٢١٤ر٣٩ بود . ويأتي بعد المشروبات الروحية الدقيق ، فقد بلغت قيمة المصدر منه أربعة ملايين قرش للفترة من ١٩١٠ – ١٩١١ م المصدر الى موانئ بيروت وحيفا فقط . كما استوردت الموانئ الفلسطينية (السماور) الروسي والمناديل والشال والخزفيات والفراء وأثاث الكنائس .

والمصنوعات الفلزية والأحذية المطاطية والأقمشة . اما الواردات الروسية من فلسطين فكان اشهرها الخزف المطعم بالصدف والفواكه والزيتون والفستق والكرز المجفف والسجاد والبسط والأثاث الشرقي ((منتجات الصناعات الخشبية)) . وقد شغلت روسيا في عام ١٩١٢ م المرتبة الثامنة في سلسلة الدول المستوردة من الدولة العثمانية والدرجة السادسة بالنسبة للدول المستوردة من بلاد الشام عام ١٩١٣ . وعلى هذا الأساس فان واردات روسيا من الدولة العثمانية لم يكن لها شأن مهم وليس لها علاقة بالصناعة [٣٩] .

---

(٣٦) لنين – الشرق الادنى كسوق للبضاعة الروسية ، بتروغراد ١٩١٣م ص ٢١٩ .

(٣٧) مجلة الصناعة والتجارة / العدد ١٨ بتروغراد ١٩١٩م ، ص ١٣ .

(٣٨) لينن ــ المصدر السابق ، ص ٢١١.

(٣٩) سميليا نسكايا ــ العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام ١٩٠٠ ــ ١٩١٤ ص ٣٧٣ .

وقد لعبت ((شركة الملاحة والتجارة الروسية)) المؤسسة عام ١٨٥٧م دورا كبيرا في تطوير العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية وخاصة مع فلسطين فقد كان ميناء حيفا الميناء الأكثر نشاطا في النشاط التجاري بين فلسطين والعالم الخارجي . ففي عام ١٩٠٢ م أقدمت السلطة القيصرية على خطوة موجهة لتقوية العلاقات التجارية بين روسيا والأسواق العثمانية كجزء من سياستها لتحقيق مكاسب سياسية عن طريق العلاقات التجارية ، وهي تأسيس خط للملاحة البحرية بين الموانئ الروسية على سواحل البحر الأسود وموانئ الخليج العربي بالاتفاق مع شركة الملاحة والتجارة الروسية ، على ان يمر هذا الخط الملاحي بالموانئ آلاتية : أوديسا ، اسطنبول ، أزمير ، بيروت ، حيفا بورسعيد ، السويس ، جدة ، جيبوتي ، عدن ، مسقط ، بندر عباس ،، لنجه ، بندر بوشهر ، البصرة ، وتعهدت الحكومة الروسية بتقديم دعم مادي بهذه الشركة مقداره ١٥٠ ألف روبل عن كل رحلة واحدة . كما شجعت الإدارة الروسية على تنظيم معرض عائم للمنتجات والسلع الروسية عام ١٩١٠ م وقد ساهم في هذا المعرض ١٥٠ مؤسسة صناعية وتجارية روسية وإقليم المعرض على ظهر الباخرة الروسية نيقولا الثاني التي تمتلكها شركة الملاحة والتجارة الروسية ، وقد ساهمت وزارة الصناعة الروسية في تكاليف إنشاء هذا المعرض وقد بدأ هذا المعرض رحلته الأولى عام ١٩١٠ م من ميناء أوديسا ثم اسطنبول وسلانيك ، والاسكندرية وبور سعيد وحيفا وطرابلس والاسكندرونة وسمسون وطرابزون[٤٠].

---

[٤٠] ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٤٦٥ ، ورقة ١٧ سنة ١٩١٠ .

وقد بلغ عدد الشركات الروسية التي لها علاقات تجارية مع بلاد الشام وفلسطين حتى عام ١٩١٤م (٤٢ شركة) وكان اشهرها شركة ((النفط الروسية)) ((براتيا نوبيل)) وكان لها وكالات في كل من دمشق والاسكندرونة وحلب وطرابلس وعطا وحيفا ويافا والقدس وغزة ونابلس وصفد[٤١]. كما وجد في بيروت وحيفا والقدس عدد من التجار الذين يحملون التبعية الروسية وقد لعب هؤلاء دورا فعالا في تقوية العلاقات التجارية بين بلاد الشام وفلسطين وروسيا [٤٢]. وفي عام ١٩١٢م أسست في بيروت ((شركة التجارة الروسية الشرقية)) وكان مساهمو هذه الشركة من التجار العرب الذين لهم علاقات تجارية بروسيا وفي السنة نفسها أسست ((شركة الصادرات النفطية الروسية ــ العثمانية ــ السورية)) التي تولت عملية استيراد النفط الروسي وتوزيعه وبيعه[٤٣]، ومن الطبيعي ان يكون لهذه الشركات علاقات وثيقة بالأسواق الفلسطينية .

وصفوة القول نرى ان لروسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر علاقات قوية بفلسطين ــ دينية وتجارية ــ وقنصلية على الرغم من دحرها في حرب القرم وموقف الدول الأوربية الكبرى ــ إنكلترا وفرنسا ــ الهادف الى تحجيم نفوذها في الأقاليم العثمانية وكونها ــ أي روسيا ــ اضعف حلقة في سلسلة الدول الرأسمالية حتى الحرب العالمية الأولى .

---

[٤١] ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٠ ، ورقة ٤٤ سنة ١٩١٠ .

[٤٢] نفس المصدر ، وثيقة ٨١٩ ، ورقة ٣٨ ، سنة ١٩١٠ .

[٤٣] نفس المصدر ، وثيقة ٢٣٠ ، ورقة ٣٣ سنة ١٩١٢ .